الفارابي في الشرق والغرب

ومكانته في الفلسفة الاسلامية

بمناسبة مرور ألف عام على وفاته

— ٢ —

الاستاذ ضياء الدخيلي

بقيت هذه التهمة الشنعاء التي ألصقت بابن سينا؛ فإن الناقدين يرتابون في صحتها ويبرهون ابن سينا عنها . والظاهر أنها من نسيج خصومه وحساده ، وقد علق على الخبر ناقله وأظنه صاحب أبجد العلوم — بأنه بهتان وإفك لأن الشيخ مقر لأخذه الحكمة من تلك الخزانة كما صرح به في بعض رسائله، وأيضاً يفهم في كثير من مواضع الشفاء أنه تلخيص التعليم الثاني . وعلق الأستاذ مصطفى عبد الرازق بأن في هذا الخبر خطأ تاريخياً؛ فإن منصور ابن نوح السامانى إنما ولى أمر خراسان بعد سنة ٣٤٣ هـ بعد موت الفارابي ، ومع هذا كيف يدعى أنه كاف الفارابي (١) — وأقول إن الفارابي درس في بغداد وعاش في سورية وزار مصر ولم يعرف أنه أقام في أصفهان وشرق المملكة الإسلامية بعد نبوغه وتألق نجمه في الفلسفة وإن قال العقاد في رسالته عن الفارابي (على أنه يبدو من كتاب الموسيقى أن فيلسوفنا جاس أيضاً خلال خراسان قبل أن يهبط العراق) (٢) فإن الظاهر أن ذلك قبل بزوغ شمس مجده في سماء الفلسفة. أما ما رواه البيهقي ونقله عنه الشهرزوري من أن الفارابي ذهب إلى الري استقدمه إليها كافي الكفاة الصاحب بن عباد وبعث إليه هدايا وصلات واستحضره واشتاق إلى ارتباطه وأبو نصر يتعفف وينقبض ولا يقبل منه شيئاً حتى ضرب الدهر ضرباته ووصل أبو نصر إلى الري وعليه قباء وسخ وقلنسوة بلقاء ودخل مجلس الصاحب متفكراً وكان المجلس غاصاً بالندامى والظرفاء وأرباب اللهو فأضافوا الجرم إلى البواب ورموا إليه أسهم العتاب واستهزأ بأبي نصر كل من كان في ذلك المجلس وهو يحتمي أذى الأيدي ويغضي على قذى الأذى والاستهزاء حتى اطمأنت أنفسهم لمجالسته وأنسام الشراب ذكره ودارت الكؤوس ومالت الرؤوس وطربت النفوس وحمل أبو نصر مزهراً واستخرج لحناً مع وزن نوم المستمعين وصار كل واحد كالذي يغشى عليه من الموت وكتب على البربط (١) زاركم أبو نصر الفارابي واستهزأتم به فنومكم، ثم خرج من الري متفكراً مع رفقة متوجهاً إلى بغداد) (٢) فهذه الأقصوصة إن صحت فإنها تدل على أنه لم يمكث في تلك الجهات مكث تأليف و كتابة، وقد علق العقاد في رسالته عن الفارابي — على القصة بأن ابن خلكان يروى قصة قريبة من هذه على أنها حدثت بين الفارابي وسيف الدولة، ثم قال ولا شبهة لدينا في أن قصة البيهقي أسطورة تمثل خيال الكاتب رفنه دون أن تمت إلى الحقيقة بنسب . ودليلنا على هذا أن الصاحب إسماعيل بن عباد ولد سنة ٣٠٦ هـ فهو عند موت الفارابي في سنة ٣٣٩ هـ كان صبياً صغيراً ولم يكن له بعد مجلس يضم الندامى والظرفاء

وجاء الأستاذ (أبوريده) من جامعة فؤاد الأول بمصر معلناً ارتيابه وشكه في صحة هذه الطعنة النجلاء الموجهة من خصوم ابن سينا إلى مقامه الجليل — فقال ولا شك أن ما يقوله حاجي خليفة كلام ينبغي أن تتلقاه بالتردد والحذر (٣)

وقد نقل القصة السابقة أيضاً المولى أحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زاده المتوفى سنة ٩٦٢ هـ على الصورة التالية إذ قال (ج ١ ص ٢٤١) في مفتاح السعادة — : إن أرسطو بعد ما دون المنطق صارت كتبه مخزونة في أثنه (أثينا) من ولاية موره (شبه جزيرة الموره من بلاد اليونان) من بلاد الروم عند ملك من ملوك اليونان ، ولما رغب الخليفة في علوم الأوائل أرسل

١ — رسالة الأستاذ مصطفى عبد الرازق (العلم الثاني)

٢ — رسالة العقاد عن الفارابي

١ — البربط هو العود والمزهر على وزن مسجد وجوهر

٢ — البيهقي في تاريخ حكماء الاسلام مخطوط في دار الكتب المصرية

٣ — تعليقات أبو ريده على كتاب دي بور (تاريخ الفلسفة في الاسلام)

المأمون إلى الملك المذكور وطلب الكتب فلم يرسلها فغضب المأمون وجمع العساكر وبالغ الجبر الملك بجمع البطاريق والرهابين (١) وشاورهم فى الأمر فقالوا إن أردت الكسر فى دين المسلمين زلزلة عقائدهم فلا تمنعهم عن الكتب . فاستحسن الملك ذلك وأرسلها إلى المأمون فجمع المأمون مترجمى مملكته كحنين بن إسحاق، وثابت بن قرة وغيرهما وترجموها بتراجم متخالفة لا توافق ترجمة أحدهم ترجمة الآخر فبقيت التراجم غير محررة إلى أن التمس منصور بن نوح السامانى من أبى نصر الفارابى أن يحررها ويلخصها ففعل كما أراد ولهذا لقب بالمعلم الثانى وكانت كتبه فى خزانة الكتب المبنية بأصبهان المسماة بصوان الحكمة إلى زمان السلطان مسعود، لكن كانت غير مبيضة لأن الفارابى كان غير ملتفت إلى جمع التصانيف ونشرها بل غلب عليه السياحة. ثم إن الشيخ أبا على تقرب عند السلطان مسعود بسبب الطب حتى استوزره واستولى على تلك الخزانة وأخذ ما فى تلك الكتب ولخص منها كتاب الشفاء وغير ذلك من تصانيفه، وقد اتفق أن احترقت تلك الكتب فاتهم من يتعصب على أبى على بأنه أحرقها لينقطع انتساب تلك العلوم عن أربابها ويختص بنفسه، لكن هذا الكلام للحساد الذين ليس لهم هاد (٢) . . انتهى كلام طاش كبرى زاده وقد اختتمه بارتيابه فى هذه التهمة أعنى احراق ابن سينا للمكتبة ليحتكر علومها ولم ينف أخذ ابن سينا من كتاب التعليم الثانى . قال العقاد فى رسالته عن الفارابى أما طاشكبرى زاده فلا يصدق هذه الرواية ويقرر أن منشأها حسد الحاسدين لأبى على وينفى حاج خليفة أيضاً عن ابن سينا تهمة حرق الخزانة لأن الشيخ أى ابن سينا مقر بأخذه الحكمة من تلك الخزانة كما صرح فى بعض رسائله ؛ وأيضاً يفهم من مواضع فى كتابه الشفاء أنه تلخيص التعليم الثانى

يقول العقاد وفى الحق أن ابن سينا تقرب إلى نوح بن منصور وطبيبه واستأذنه فى الاطلاع على دار كتبه فأذن له. وابن سينا يصرح أيضاً بأنه كان يقرأ كتاب (ما بعد الطبيعة) لأرسطو دون أن يفهم ما فيه حتى أيقنت المقادير بين يديه كتاب الفارابى فى أغراض كتاب ما بعد الطبيعة فاستطاع حين ذاك أن يفهم كتاب أرسطو . وهو يصرح أيضاً فى كتاب الشفاء بأنه يلخص آراء القدماء . ولكنا مع هذا نجد فى روايتى مفتاح السعادة وكشف الظنون كثيراً من الأغلاط ؛ فمنصور بن نوح لم يكن ملكا قبل سنة ٣٥٠هـ أى بعد وفاة الفارابى بأحدى عشرة سنة ولم يكن السلطان مسعود من أحفاده ولم يستوزر ابن سينا وإنما استوزره شمس الدولة فى همذان، ولم تكن خزانة الكتب فى أصفهان وإنما كانت فى بخارى . ومما يرجح الشك فى صحة هذه الرواية أيضاً أننا لا نجد عند المؤرخين المتقدمين كتاباً للفارابى باسم التعليم الثانى ؟

والذى يهمنا من كل ما تقدم هو الحقيقة الثابتة التالية التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها وهى أن ابن سينا تخرج بكتب الفارابى، والظاهر أن آثار المعلم الثانى بقيت المعين الصافى الذى ورد منه جمع غفير من رواد الفلسفة ، فقد جاء فى كتاب (دروس فى تاريخ الفلسفة) ٢) عرض لأثر الفارابى فى رواد المعرفة فى الأجيال الإسلامية، قال المؤلفان فيه (وهناك تلاميذ آخرون اهتدوا بهدى الفارابى واستمسكوا بتعاليمه دون أن يروه أو يعاصروه وعلى رأس هؤلاء الأستاذ الرئيس أبو على الحسين بن عبدالله بن سينا المتوفى سنة ١٠٣٧ م

ولا غرابة فابن سينا نفسه يعترف بتأثره به وفضله عليه ولقد بلغ من تعلقه بنظرياته أن بذل كل مجهود فى تفهمها وأفاض فى شرحها وتوضيحها بحيث منحها نفوذاً وسلطاناً لم تنله على يد واضعها ومبتكرها، وإن كان للفارابى فضل السبق فلتلميذه فضل البيان والإيضاح . ولكن (كارل بروكلمان) فى كتابه (تاريخ الشعوب الإسلامية) فى القسم الثانى الباحث عن الإمبراطورية الإسلامية وانحلالها لم يرض أن يقصر ما دونه ابن سينا على مهمة البيان والإيضاح لأفكار الفارابى بل أعطى كتاباته من

---

١ ــ مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده

٢ ــ الفارابى للعقاد من سلسلة أعلام الاسلام

٢ ــ تأليف الدكتور ابراهيم بيومى مدكور ويوسف افندى كرم المدرسين فى كلية الآداب بمصر ــ ص ١٥٧

المكانة العليا ما دفعه لأن يدعى أنها اكتسحت وجرفت مؤلفات الفارابي من سوق التداول الفكرى فقال (ولم تقتصر الحركة الفكرية فى بلاط سيف الدولة على الشعر والأدب بل عدتهما إلى العلم أيضاً بروح ملؤها التفهم والإدراك فلمع فى سمائه أحد تلامذة أرسطو الكبار أبو نصر الفارابى التركى الأصل الذى أتم دروسه فى بغداد . ومع أن مؤلفات ابن سينا استطاعت أن تحظى بسلطان دائم فى العالم الإسلامى فالواقع أن هذا الرجل (الفارابى) ليمثل بوصفه أحد تلامذة الفلسفة اليونانية الأكثر استقلالا — ظاهرة بارزة جدا فى تاريخ الحضارة الإسلامية) ١

ولا ننكر أن انسحار ابن سينا بآراء الفارابى واجتذابها له خلفا أثراً سيئاً على مؤلفات الفارابى إذ أن ابن سينا شرح أفكار الفارابى بإسهاب وعرضها للناس بثوب جذاب ومظهر أخاذ فأدى ذلك إلى نسيان الناس مؤلفات الفارابى نفسها وانذهالهم عنها بما كتبه ابن سينا حتى قال العقاد فى رسالته عن الفارابى (وكان من سوء حظ الفارابى أن جاء بعده الرئيس ابن سينا أو الشيخ الرئيس وتألق نجمه فى ميدان الفلسفة كما سطع فى سماء السياسة وأفاض الشيخ الرئيس فى التأليف وصنف كتباً مطولة اشتملت على مذهب الفارابى فى الفلسفة ، وأغفت الناس عن رسائل الفارابى الموجزة وألقت على تاريخه ظلالا من النسيان) ٢

وقد قدمت أن ابن سينا ولد بعد وفاة الفارابى بـ ٣١ عاماً ولكن من الغريب أنى وجدت فى (الوافى بالوفيات) يقول مؤلفه صلاح الدين بن أيبك الصفدى قال ابن سينا « سافرت فى طلب الشيخ أبى نصر وما وجدته وليتنى وجدته فكانت حصلت الفائدة » ٣ وإنى أعلق على هذا الخبر الذى أرتاب فى صحته بأن ابن سينا تعلم الفلسفة وهو شاب يافع فقد كان عمره حين تعلمها حوالى الستة عشر عاماً ؟ قال الأستاذ محمد لطفى جمعة فى (تاريخ فلاسفة الإسلام) ولم يبلغ أبو على — السادسة أو السابعة عشرة من عمره حتى طبقت شهرته الخافقين لحذقه فى الطب ، وقد دعاه نوح بن منصور أمير بخارى لعيادته فى مرض ألم به وأعيا حيل الأطباء فعالجه إلى أن عوفى فانبسط له وأسبغ عليه ذيل الرضى وأسبل عليه ثوب النعمة وفتح له خزانة كتبه فوجد بها الطبيب الحكيم خير مجال لرغبة الدرس وأرحب ميدان لطالب العلم واستقى من تلك الينابيع العذبة ماشاء إقباله عليها . وقد حدث أن احترقت خزانة الكتب فاتهم ابن سينا بأنه حرقها رغبة فى أن يتفرد بما وعته من الحكمة وخشية أن ينتفع بما حوته سواه ، وقد مات الأمير نوح بعد ذلك بقليل عام ٣٨٧ هـ وفى هذا العهد كان قد مضى على وفاة الفارابى حوالى (٤٨) عاما فكيف يسعى ابن سينا للقياه ؟ وهل موت الفارابى حادثة طفيفة يتوقع أن لا تصل إلى مسامع ابن سينا وهو عاشق الفلسفة الدؤوب لتحصيلها؟ ومع ذلك فإننا لا نغلق باب الاحتمال ونجوز صدق الرواية ولا نكذب احتمال عدم اطلاع ابن سينا على وفاة الفارابى الأمر ، الذى حمله على أن يعقد عزمه على الاتصال به؛ ذلك لأن ابن سينا فى هذا العهد كان يعيش فى شرق البلاد الإسلامية فى بخارى ، أما الفارابى فقد توفى فى دمشق ، فإذا أضفنا إلى بعد المسافة تقطع الأسفار لوعورة الطرق ووحشتها مضافاً إلى ذلك أنه لم يكن الفارابى الفيلسوف المتصوف المنقطع عن الناس بذائع الصيت حينئذ — كل ذلك مما يجوز صدق أقصوصة عزم ابن سينا على الاستمتاع بفضل الفارابى عن كثب وسفره فى طلب الشيخ العميق التفكير والقصة على كل حال وحتى مع تقدير كذبها تدل على سمو مكانة الفارابى فى أذهان المؤلفين فى تلك العصور فهم ينقلون خبر عزم ابن سينا على شد الرحال أو قيامه بالسفر حقيقة للاستفادة من علمه ولا يجدون فى ذلك غرابة؛ بل إن فضل الفارابى فى رأيهم يستحق أن يقصده رواد العلم من أمثال ابن سينا من أقاصى البلاد فضلا عن أدناها

١ — ا يطريق جمعه بطاريق كلاهما بالقاف وهو القائد من قواد الروم والبطريك وجمعه بطاريك كلاهما بالكاف وهو رئيس رؤساء الأساقفة على أقطار معينة والظاهر هو المقصود بقرينة الرهابين الذى هو جمع رهبان بمعنى الراهب ولكن صاحب مفتاح السعادة أورده بالقاف خطأ

٢ — تاريخ الشعوب الاسلامية لكارل بروكلمان

٣ — الفارابى للعقاد

٤ — الوافى بالوفيات

الكلام بقية

ضياء الدفيلى